د . حسن جلاب

(الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب)

(1)

الحركة الصوفية بمراكش :
ظاهرة سبعة رجال

مراكش 1994

أصل هذا الكتاب

رسالة جامعية نال بها صاحبها دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب بالرباط يوم 27 يونيو 1987 بميزة حسن جدا، تحت عنوان "الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب".

وكانت لجنة المناقشة مكونة من :

الدكتور محمد بنشريفة رئيسا
الدكتور عباس الجراري مشرفا ومقررا
الدكتور عبد السلام الهراس عضوا
الدكتور محمد بن شقرون عضوا

وتتكون الأطروحة من ثلاثة كتب هي :

- الحركة الصوفية بمراكش : ظاهرة سبعة رجال
- الآثار الأدبية لصوفية مراكش
- مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى - مراكش
رقم الايداع القانوني 426 / 1994
ردمك 0-2-9600-9981
المطبعة والوراقة الوطنية مراكش

تقديـــــم

أصل هذا الكتاب أطروحة جامعية لنيل دكتوراة الدولة في اللغة العربية وآدابها، قدمتها لكلية الآداب والعلوم الانسانية التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط بتاريخ 27-6-1987. وقد أقدمت على نشرها هذه السنة لتستفيد منها قاعدة أكبر من الباحثين والمهتمين.

ومع مرور حوالي سبع سنوات على كتابتها فإنني تركتها كما كانت في الأصل ولم أدخل عليها الا التعديلات والتصويبات التي اقترحها السادة أعضاء لجنة المناقشة.

وهذا الكتاب هو الجزء الأول من الأطروحة، سيتلوه جزءان هما : الآثار الأدبية لصوفية مراكش"، و "مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي". آمل أن أكون قد ساهمت بها في اغناء البحث حول تاريخ مدينة مراكش وأدبها الصوفي. والله نسأل التوفيق والسواد.

مراكش في 19 شتنبر 1994

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

قد يكون للمصادفة دور في توجيه حياة الانسان، وتحديد مستقبله ومصيره !!

فقد كلفت في إحدى سنوات السلك الثاني من دراستي الثانوية بإنجاز بحث حول "الزاوية الدلائية"، رجعت فيه الى بعض الكتابات والمقالات الأجنبية على الخصوص. ووجدت نفسي وأنا اتهيأ لانجاز بحث الاجازة اميل الى نفس الموضوع تلقائيا. فكان حول "الشعر الدلائي".

تمكنت هذه المرة من التعرف الى مصادره وأصوله، والى شعرائه وانتاجهم واتجاهاتهم، وتاريخ الزاوية وأدوارها السياسية والاجتماعية والعلمية.

وقد مكنتني محاضرات السلك الثالث التي كان يلقيها أستاذي الدكتور عباس الجراري من تعميق معلوماتي في الموضوع، إذ كان أحد محوريها عن اليوسي -تلميذ الدلائيين- وكتابه المحاضرات.

فلم أتردد بعد ذلك -باتفاق مع أستاذي- في اختيار أحد أبرز علماء الدلاء وأدبائها، وهو محمد المرابط، موضوعا لرسالتي لنيل دبلوم السلك الثالث. وكان ذلك حافزا لي على الاهتمام بالأدب الصوفي المغربي عموما.

ولعل من حسن المصادفة كذلك ان تأسست كلية الآداب التابعة لجامعة القاضي عياض بمراكش بعد فراغي مباشرة من البحث المذكور. فكرس انتسابي لها اهتماما آخر : أدب الاقليم وتراثه. إذ يجب أن تكون من أهداف الكليات التفتح على محيطها القريب ودراسته على مختلف المستويات، إضافة الى مهامها العلمية التربوية. فلا يمكن أن يتضح تاريخ أو أدب بلد ما لم يسبق أو يواكب بدراسات لمدنه وبواديه ومناطقه...

وقد ظهرت هذه الدعوة عند بعض علمائنا من خلال دراسات وتواريخ اعلام الفت حول مدن كفاس ومراكش ومكناس والرباط... الا أن هذا الاتجاه كان أكثر بروزا وتكاملا في مقدمة كتاب "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه" للدكتور عباس الجراري.

فقد اعتبر الاقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة، والوسيلة الوحيدة للم شتات الأدب العربي في كل الأقطار التي أبدعته، والطريق الى العالمية

والانسانية. وبذلك فإنها تتنافى والمحلية، أو ما يمكن أن يفهم من احياء للنعرات القبلية أو الجهوية.

ودعا المؤلف الى الاهتمام بالأدب بمفهومه الشامل لكل الانتاج الفكري لأمتنا، دون حصره في نطاق الشعر والنثر الفني... وتناول المدرسي والشعبي منه، قديمه وحديثه، عن طريق طرح ظواهره وقضاياه.

وما أكثر الظواهر والقضايا التي تستحق الدراسة في مراكش. ذلك لأن التاريخ السياسي والفكري والاجتماعي للمغرب كاد أن يرتبط بمدينتين كبيرتين : فاس ومراكش اللتين تناوبتا على احتضان كرسي الحكم، ومركز القرار، ومنابر العلم وخزائنه. واستقبلتا على امتداد التاريخ العدد الهائل من العلماء والصوفية والفقهاء والشعراء ما لم تستقبله غيرهما من مدن المغرب وباديه، فعلّموا بها الأجيال وألفوا الكتب.

ولا نبالغ اذا قلنا بأن حظ مراكش -التي أعطت اسمها للمغرب كله- كان أوفر في كل المجالات.

إلا أنني وفاء لاهتماماتي وخدمة للمقاصد والغايات السابقة الذكر، رأيت أن يكون موضوع أطروحتي متصلا بظاهرة صوفية لها ارتباط بالمدينة.

وبالرغم من أن المدينة قد برز فيها عدد من الصوفية الاعلام، خلفوا آثارا تستحق الدراسة، وعرفت طوائف وطرقا صوفية نشيطة (فهي كما يقال "تربة الأولياء" و "كل قدم من أرضها بولي") ، فإنني فضلت تناول ظاهرة سبعة رجال واثرها في الأدب، لأنها :

- تتسم بالطرافة والاثارة.
- تضم عدة طرق ومذاهب صوفية
- كان لها تأثير سياسي واجتماعي عميق على مدى عدة قرون.
- كانت سببا في ظهور حركة أدبية تأليفية واسعة النطاق.

وإذا بدا لأول وهلة ان الموضوع محدد : ظاهرة معينة، في مدينة بالذات ! فإنه في العمق يطرح اشكالا كبيرا : وهو امتداده الزمني. فأول الرجال ينتمي للعصر المرابطي، وآخرهم ينتمي لبداية العصر السعدي. وهكذا فإن دراسة آثارهم الأدبية الصوفية تقتضي التنقل بين أدب هذه العصور. يضاف الى هذا ان تأثير الظاهرة يستمر على مدى العصر العلوي بكامله. وهذا يتطلب -بطبيعة الحال- مجهودا كبيرا سواء في جمع مادة البحث أو دراستها وتحليلها.

هذه المادة التي تطرح بدورها اشكالا : فالموضوع بالصيغة المحددة أعلاه، لم يسبق أن

تناوله أحد من الباحثين من قبل، إذ كان الاهتمام منصبا على أسباب تنظيم الزيارة، وتحديد مدارها، والتعريف بأعلامها. وكانت الدراسات المعروفة حول الموضوع هي : اظهار الكمال لمؤرخ مراكش عباس بن ابراهيم المراكشي، ومقالة لهنري دوكاستري نشرها في آخر الربع الأول من هذا القرن على صفحات مجلة هسبريس. واعتمد فيها أساساً على ما جاء في الكتاب المذكور، وبعض الكتب التي ترجمت لهؤلاء الرجال كالتشوف، والدوحة، والممتع... ومع المجهود العلمي المبذول في هذه المقالة، فإنها لم تضف أي جديد لما في إظهار الكمال.

ويمكن أن نقول نفس الشيء عن آثارهم الأدبية الصوفية، فلم يكن معروفا ومتداولا منها سوى : شفا عياض، وبعض قصائد السهيلي وصلاة السبتي، وأحزاب الجزولي، في حين تتردد في كتب التراجم قصائد قيلت في مدحهم، والتوسل بهم، والحث على زيارتهم... وفي كنانيش الملحون، وفي المرددات الشعبية نصوص شبيهة في المدح والتوسل.

ومع قلة ما كان بيدي من المصادر المعروفة عن الظاهرة، أقبلت على الموضوع بشجاعة وحماس، متجها الى :

- مؤلفات هؤلاء الرجال المتصلة على الخصوص بالظاهرة الصوفية أجعلها أساس الدراسة.
- كتب التاريخ بحثا عما قاله المؤرخون في موضوع تنظيم الزيارة لعلاقته باحداث جبل الحديد (رجال رجراجة) ببلاد الشياظمة على عهد محمد الشيخ والمولى إسماعيل.
- كتب التراجم والطبقات للتعرف الى سير الرجال وكلامهم.
- كتب التصوف والطريقة، للتعرف الى مذاهبهم، ونظرياتهم الصوفية وعلاقتها بالتراث الصوفي الاسلامي.
- كتب الفهارس والمسلسلات لربط هذه الطرق بغيرها، ولمعرفة شيوخهم وتلامذتهم وأسانيدهم...
- كتب التصليات والاذكار، سواء ما كان من إنتاج الرجال أنفسهم أو ما كان متأثرا بهذا الانتاج أو سائرا على نهجه.
- الرسائل والوثائق والظهائر التي لها علاقة قريبة بالموضوع وتسلط الأضواء على جانب من جوانبه.
- دواوين الأشعار، وكنانيش الملحون، وتسجيلات المرددات الشعبية، للوقوف على آثارهم الشعرية، وما قيل في مذاهبهم أو مدحهم أو في التوسل بهم. وقد كان الصنف الثاني غزيرا جعلني أكتفي بنماذج تمثيلية متنوعة أتعرف من خلالها الى مستوى هذا الشعر وأحدد خصائصه ومميزاته.

- الدراسات والمقالات، وهي قليلة. وما ظهر منها أثناء اشتغالي بالموضوع لم يكن ليفيدني ما دمت قد اعتمدت أصولا لم يستفد منها كُتّابها.

ولا أريد الاطالة بعرض عناوين الكتب المعتمدة في هذه الأطروحة فلذلك مكانه الخاص، إلا انني أكتفي بذكر الخلاصات التالية :

1- انها -أي الكتب- كثيرة ومتنوعة شغلت كل أوقاتي خلال السنوات الطوال التي عكفت فيها على تهييء الأطروحة، يفسر ذلك : الامتداد الزمني للموضوع، وتنوع اهتمامات أعلامه (لخمسة منهم تآليف)، وعمق تأثيرهم في الأدب، وفي التصوف المغربي والاسلامي.

2- ان هذه الكتب والوثائق -أو على الأقل الأساسي منها- غير محفوظة في المكتبات العامة، وإنما توجد في مكتبات خاصة بمراكش أساسا، وبمدن أخرى. وقد تمكنت من الاطلاع على هذه الذخائر أحيانا وسمح لي بنسخها أو تصويرها أحيانا أخرى. منها وثائق وظهائر وتقاييد عن الجزولي والتباع والغزو اني وابي عمرو المراكشي، وبعض أحزابهم ورسائلهم غير المنشورة، ونسخة كاملة من كتاب النقطة الأزلية للغزواني، وبعض أحزابه ورسائله، ونسخ فريدة من كتب أخرى كدرر الحجال، وبادرة الاستعجال، وفهارس العلماء، ومجموعات من كتب التصلية المتأثرة بدلائل الخيرات.

3- أغلب هذه المصادر توظف في البحث لأول مرة، منها نسخ فريدة بخطوط مؤلفيها ذكرت بعضها كدرر الحجال لليفرني، ومقدمة الارتجال لمحمد الأمين الصحراوي، وبادرة الاستعجال لمحمد الغالي بن المكي والأنوار القدسية للكتاني، وميزاب الرحمات لابن المؤقت المراكشي... بالاضافة الى عدد كبير من كتب التصليات والأذكار.

4- تحققت بعض أهداف الاقدام على الدراسة الاقليمية : فقد مكنني انتمائي الى المدينة، واتصالي الوثيق بعلمائها وأدبائها من ولوج مكتباتها الخاصة، والاستفادة مما تزخر به من مصادر ووثائق وكنانيش وفهارس...

وقد تناولت موضوعي في مدخل وثلاثة أبواب (تُكوّن تسعة فصول) وخاتمة :

المدخل : تحدثت فيه عن الحركة الصوفية بالمغرب قبل تأسيس المدينة : فتتبعت أصداء التيارات الصوفية التي عرفها المغرب قبل منتصف القرن الخامس الهجري، وتفسير ظهور الرباطات والزوايا :

- على السواحل والثغور للجهاد والحراسة والتعليم : كاملية، والنكور وسبتة، وطنجة، وأصيلا، وسلا، وتيط، وگوز.

- على الطرق التجارية وعلى ضفاف الأنهار، لتسهيل التبادل التجاري، وتأمين الطرق، وحراسة القوافل : كزوايا فاس، واغمات، ورباط نفيس، ورباط شاكر.

- على قمم الجبال : لتنظيم الحياة الاجتماعية والدينية والفصل بين السكان فيما يطرأ بينهم من خصومات وخلافات على المراعي والمياه.

وجاءت مراكش فيما بعد لتسهم في هذا النشاط الديني والتجاري والعلمي، ولتحتمل مع الزمن مكانة اغمات وتجتذب إليها صوفية المنطقة.

الباب الأول

حول الحركة الصوفية بمراكش (في ثلاثة فصول)(*)

الفصل الأول : مراكش والتصوف

اشكالات وعوامل، بالرغم من ان اهتمامي مركز حول سبعة رجال، فإنه من الضروري أن أتعرض لبعض القضايا المتصلة بالمدينة الحديثة التأسيس لما لها من راتباط بالموضوع : وتتعلق بالتسمية والموقع والتعمير والوظائف.

فلا يخفى ما لاختيار الموقع من أثر في سرعة نمو المدينة وتكيفها مع المحاور التجارية الموجودة من قبل، واستقبالها بالتالي لكافة التيارات الفكرية القريبة منها (اغمات، نفيس، شاكر، گوز...) والبعيدة (سوس، فاس، سبتة، الأندلس).

اما الحديث عن الوظائف السياسية والعلمية والاقتصادية بالمدينة فهو بمثابة تمهيد أو تقديم للحديث عن أدوار سبعة رجال، ذلك لأن العلاقة بينهما وثيقة : فعند خضوع المدينة لسلطة مركزية، فإن هذه الأخيرة تمارس تلك الوظائف. اما في حالة ضعفها أو انعدامها فإن الأمور تؤول الى الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية الاحياء. وقد يلجأ الناس تحت ضغط الخوف، وتأثير اليأس الى طلب حماية الأموات كذلك.

الفصل الثاني : الطرق الصوفية والزوايا التابعة لها بمراكش

كما بدا من الضروري كذلك ان أتعرض للطرق الصوفية والزوايا التابعة لها بالمدينة :

(*) هذا الباب هو موضوع هذا الجزء الأول من الأطروحة.

فهي لا تحتضن فقط طواف سبعة رجال، وإنما شبكة واسعة من الزوايا التابعة لكل ما عرفه المغرب من طرق صوفية سواء منها ما تأسس في المدينة أو في مدن مغربية أخرى أو كان وافدا من المشرق، بل لقد اعتبر سبعة رجال بمثابة معالم يهتدي بها للتعرف الى باقي المزارات، وقد وضعنا خرائط تحدد مكان الزوايا والطرق الصوفية التي تنتسب إليها، وموقعها من الطواف المذكور.

ويمكن التمييز في الطرق الصوفية بين مرحلتين :

أ- مرحلة النشأة والتطور، أو ما قبل الجزولي (من آخر القرن السادس الى مستهل القرن التاسع الهجري) : فاعتبارا لموقف المرابطين من بعض قضايا الفكر ومنها التصوف، ولاستمرار الرباطات المحيطة بالمدينة في النشاط والعمل، كان لابد من انتظار العصر الموحدي لتبدأ الحركة الصوفية بالمدينة. وأهم ما عرفته خلال هذه المرحلة :

- رباط جيليز عند أسوار المدينة
- رباط أبي اسحاق بحي باب ايلان
- رباط الغار خارج باب اغمات لصاحبه يوسف بن علي الصنهاجي (من أتباع أبي يعزى).
- زاوية أبي العباس السبتي صاحب مذهب مشهور في الصدقة والذي يتصل سنده بالأئمة : الغزالي والجيلاني وأبي يعزى.
- الطريقة الاغماتية الهزميرية التابعة للطائفة الماجرية والتي أدخلها الى المدينة أحد علمائها الاعلام : ابن البناء العددي المراكشي بعد ما أخذها عن الشيخ عبد الرحمن الهزميري أخ مؤسسها محمد بن عبد الكريم الهزميري.

ب- مرحلة الانتشار، الجزولي وما بعده (ابتداء من أواسط القرن التاسع...) : يعتبر الجزولي مجدد الطريقة الشاذلية، ومؤسس طريقة جديدة تسير على هديها، لذلك له مكانة كبيرة في التصوف الاسلامي عموما. فقد اعتبره الباحثون مرحلة أساسية من مراحل التصوف الاسلامي :

- من الجنيد الى الشاذلي
- ومن الشاذلي الى الجزولي
- وما بعد الجزولي.

ودون الدخول في التفاصيل نلاحظ ان الطريقة الجزولية كانت ممثلة في المدينة بشكل واسع من خلال تلامذة الجزولي ومريديهم، منها : التباعية، الغزوانية، الفلاحية، القسطلية، العيساوية، الوزانية والشرقاوية ومنها ما كانت جزولية/زروقية كالناصرية، والحنصالية،

والدرقاوية (بفروعها العديدة). وأخيرا ما لم تنسب الى هذه أو تلك : كالتيجانية.

الفصل الثالث : سبعة رجال وأدوارهم

بما انني تعرضت لبعضهم عند حديثي عن الطرق الصوفية فإنني اكتفيت في هذا الفصل بالحديث عما تميز به كل واحد منهم وأهّله ليكون محل اختيار من بين كافة أولياء المدينة. وأهم ما توصلت إليه في هذا المجال تصحيح تاريخ التنظيم اعتمادا على وثائق لم تستغل من قبل، وهو وسط القرن الحادي عشر على عهد السلطان محمد الشيخ الصغير السعدي لا مطلع القرن الثاني عشر على عهد المولى اسماعيل، كما كان معتقدا. فكان هذا الأخير مجرد مجدد للطواف نظرا لتجدد الأحداث والظروف التي تم فيها التنظيم الأول.

وقد تحدثت عن أدوار سبعة رجال في بيئتهم ومجتمعهم، وكانت سياسية تربوية علمية واجتماعية. وكان ذلك من أسباب اختيارهم.

وسيستمر تأثيرهم السياسي والاجتماعي طويلا، وكانوا محور أدب غزير، ومؤلفات عديدة ألفت خلال القرون التي تلت هذا التنظيم.

الباب الثاني(*)

خصصته لآثارهم الأدبية (في ثلاثة فصول)

الفصل الأول : الشعـــر

يختلف شعرهم من حيث مضامينه ولغته وأسلوبه : فقد اهتم عياض بالرسول يمدحه ويتوسل إليه في أسلوب تقريري مباشر خال من الإيحاء والتضمين وتوظيف الصور الشعرية، مع الاحتفال بالمحسنات اللفظية خاصة. وبالمقابل كان معجمه غنيا بالاشارات والمفاهيم الدينية، وما يتعلق بالسيرة النبوية والمقام النبوي... مما جعله أقرب الى نظم تعليمي/تأديبي تلخص السيرة فيه تلخيصا. اما السهيلي فلأسباب ذاتية نفسية واجتماعية يؤرقه "هاجس الذنب" تاريقا، فيصف هذه الحالة النفسية محاولا تجاوزها وباحثا عن الاستقرار والتوازن. يتم ذلك بواسطة ثنائيات : الذنب/العفو، الفقر/الفضل، والتشوف للاستجابة.

وبالرغم من ان ما سميناه "بنية التوارد" هي التي كانت تحكم هذا الشعر أي عدم

(*) خصصنا له الكتاب الثاني من هذه الأطروحة تحت عنوان "الآثار الأدبية لصوفية مراكش".

التقيد ببناء معين للنص، وإطلاق العنان للخواطر والمشاعر تتدفق كما تشاء -شأن من يعاني من هاجس ما- فإننا لاحظنا بوادر خط تطوري بين النصوص يتدرج فيه حسب تعبير الصوفية : من مقام التوبة الى مقام التوكل. نتج عن هذا طغيان معجم توسلي محض يسير على نمط أدب الأذكار : من تكرار للألفاظ وتلذذ بترديدها (الٰهي العفو : الذنب...) ووضوح العبارات والتفتح على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وصيغ الأدعية.

ويعتبر شعر الغزواني عالما آخر. انه "شعر المعاني" كما يحلو للصوفية تسميته، لا يحتفل فيه بوزن ولا بلفظ أو صورة أو تشبيه، وإنما يكون السبق للمعاني والشطحات الصوفية ومناجيات الالهام، وللحديث عن الطريقة وأعلامها.

مع هذا الاختلاف لا يخلو هذا الشعر من تكامل فهو في مجموعه يُكوّن أهم موضوعات الشعر الصوفي : مدح الرسول، التوسل به وبالخالق، والتعبير عن الذنب وطلب الشفاعة. وأخيرا الشعر الذي يتحدث عن الطريقة والمقامات وآداب التربية الروحية والخواطر الصوفية. وهناك رابط يجمع بين آثار هؤلاء الرجال عموما سنشير اليه في ختام الحديث عن هذا الباب.

الفصل الثاني : الكتابة الصوفية : مؤلفات ورسائل

بحثت فيه عن النظرية الصوفية من خلال كتابات : عياض، الجزولي، والغزواني :

- فدرست الجوانب الصوفية في الشفا : فبالرغم من انه كتاب حديث وسيرة فإنه لم يخل من حديث عن بعض جوانب التصوف، خاصة وان مؤلفه هو تلميذ صوفية مشاهير من الأندلس (منهم ابن العربي)، وانه كان في حياته متعلقا بالزهاد والأولياء يسير على نهجهم، ومن هذه الجوانب : حديثه عن المحبة ومقاماتها وأنواعها، والزهد لدى الرسول والسلف الصالح وما يترتب عنه من آيات، والتصليات وأسانيدها وصيغها، وجزاء المصلين على الرسول.

- أما الجزولي : فقد فسر طريقته ومبادئه في بعض رسائله التي لم تصلنا كاملة لسوء الحظ، وهي : رسالة في العقيدة، وكتاب التوحيد ورسالة في أمور الدنيا والدين. وأقواله الواردة في كتب التراجم وخاصة منها ممتع الاسماع. وقد وجه بعضها الى المبتدئين من المريدين، فحدثهم عن الاسلام وأركانه، والإيمان وشعبه. في حين وجه أخرى الى الذين قطعوا أشواطا في السلوك، وكانت موضوعاتها حول : التوحيد ومعرفة الذات الالهية، والمعرفة الصوفية، وتمييزها عن المعرفة الفقهية البرهانية، والتلقين بواسطة الشيخ، وأنواع الشيوخ، والمقامات والأحوال، وآداب المريدين، والذكر ودوره في تطهير المريد ومعالجة علل نفسه. الى

غير ذلك من الموضوعات التي يهتم بها الصوفية والطرقيون عادة.

- ويسير كتاب النقطة للغزواني على نفس النهج : حديث عن سنية الطريقة، وانتهاء سندها الى الرسول (ص)، مع التركيز على تعاليمها. التوحيد ومقاماته، التربية والتلقين، وتناول فيه دور الشيخ في السلوك وأنواع الشيوخ، المريد والارادة. والذكر والمقامات والأحوال وتدرج السالكين من الفرق (أهل الظاهر) الى الجمع (أهل الجذب) فجمع الجمع (أهل الفناء). والوالي والولاية، ومراتب الأولياء وشروط القطب وعلاقته بالغوث والجرس.

عبر عن هذا كله بأسلوب يجمع بين البساطة والوضوح، والغموض والابهام خاصة فيما كان يسميه مناجاة الالهام، ويمزج فيه بين الكلام الفصيح والعامي.

ويؤكد المستوى العلمي لهذه المباحث ان الكتابة الصوفية بالمغرب الى منتصف القرن العاشر، حافظت على المستوى الذي كان موجودا من قبل، والذي بلغ ذروته في الغرب الاسلامي عند صوفية الأندلس أمثال ابن مسرة وابن العريف وابن برجان وابن العربي وغيرهم.

الفصل الثالث : أدب الأذكار

تنهض الأذكار بأدوار نفسية وتربوية مهمة، إذ يعتبرها المريدون بمثابة مواثيق (العهد) يأخذها الله على عباده بواسطة المشايخ، لهذا كانوا يحرصون على الالتزام بها وتطبيق مقتضياتها. وقد تستغني الطريقة عن الشيخ، ولكنها لا تستغني عن الذكر الذي يعتبر وسيلة من وسائل التطهير والتدرج في مقامات السلوك، لذلك صنفوه في خمسة أصناف تصاعدية : ذكر الاستغفار، التصلية، التهليل، ذكر التنزيه، ثم الذكر المفرد. متى فرغ المريد من صنف تعاطى للذي يليه.

وكان الشيوخ يجتهدون في صياغة أذكارهم حريصين على مضامينها، ومستواها الشكلي كل بحسب طريقته واتجاهه وآرائه في التربية والتلقين. وحياة الطريقة ونجاحها متوقف على مدى فعالية اذكارها وغناها وتنوعها وحسن تنسيقها.

وهذا ما يعطي لأدب الاذكار أهمية كبيرة تجعله من الخطابات الأدبية التي يجب دراستها وتحليلها، وهو ما لم يحدث الى الآن.

وقد حللت أهم أذكار سبعة رجال (حزب السبتي، ودلائل الخيرات، وأحزاب الغزواني) وصنفتها الى محاورها الأساسية، وحددت خصائصها الأسلوبية المشتركة مع الاشارة الى خصوصيات كل صنف بحسب زمن تأليفه. والمقام الذي أراده له مؤلفه، ومدى تأثيره في أدب

الأذكار التي جاءت بعده.

وقد تبين لي ان "دلائل الخيرات" يأتي في قمة هذه الأذكار كلها سواء في تعدد محاوره وتنوعها، أو في تفتحه على نصوص القرآن والحديث والأدعية المأثورة، أو في الاهتمام بأسلوب الأدعية التوسلية التي أبدعها مؤلفه من حيث وضوح العبارات واختيار الألفاظ ومراعاة موقعها في الجملة، وتناسق حروفها وانسجامها مع باقي ألفاظ الجملة، لتكون -بالاضافة الى دلالاتها المعنوية- جذابة آسرة مؤثرة، وهذا ما جعل المؤلف أوسع كتب الأذكار انتشارا في العالم الاسلامي.

هذه الآثار الأدبية التي تحدثنا عنها في الباب الثاني يربطها رابط مشترك عام، لعله كان الدافع الأساسي لاختيارهم دون غيرهم من أولياء المدينة : وهو سعيهم الى تحقيق وحدة الأمة المغربية الاسلامية وحمايتها من التفرقة والتشرذم : في تكريم عياض للنبوة في شعره وشفاه، والرفع من مقامها بالتنديد بالمذاهب التي تقول بعصمة الأشخاص وتخرج عن الخط السني الجماعي.

وهو ما عبر عنه السهيلي في شعره التوسلي وفي دعوته الى نبذ الانقسامات والخلافات والفتن التي عرفها عصره بالأندلس والمغرب، والتوجه الى الخالق والتماس عفوه ورضاه، لذلك لم يهتم بما اهتم به شعراء عصره من ولع بالمذهب الموحدي ومدح أصحابه ودعاته.

وتجلى هذا الاتجاه كذلك في سنية طريقتهم واصرارهم على التوفيق بين الشريعة والحقيقة عن طريق البدء بتعليم القواعد الضرورية للدين قبل الطريقة، وعرضهم للخواطر ومناجاة الالهام على نصوص الشريعة ورفض ما كان مخالفا لها.

الباب الثالث(*)

مظاهر التأثير

قصد منظمو الزيارة تحقيق أهداف سياسية محضة، وقد تم للمجدّد ذلك، الا ان هذه الزيارة قد حققت أهدافا أخرى لم تكن مقصودة في بداية الأمر، فقد كانت محور حركة أدبية

(*) خصصنا له الكتاب الثالث من هذه الأطروحة تحت عنوان "مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي".

وتأليفية شملت الشعر، والنثر الفني والتأليفي.

الفصل الأول : في الشعر

اثرت هذه الحركة في الشعر المدرسي والشعبي، من خلال ما قاله شعراء العصر العلوي وشيوخه من قصائد في مدحهم والتوسل بهم وطلب حمايتهم. وكانوا ينتمون الى فئات اجتماعية مختلفة، منهم العالم والفقيه والصوفي والشاعر. فكان من الطبيعي أن تختلف مستوياته الفنية وتتعدد، إلا انه يلتقي عند خاصية واحد هي صدق مشاعر قائلية وتحمسهم للموضوع، مما يجعل شعر التوسل اتجاها مهما من الاتجاهات الشعرية التي عرفها العصر. وتعتبر دراسته لذلك ضرورية للتعرف الى خصائص الشعر (المدرسي والشعبي) للفترة المذكورة.

الفصل الثاني : في أدب الأذكار

كان من الصعب تعقب اثر أذكار سبعة رجال في أدب الأذكار بعدهم، على العموم، لذلك ركزت على أهمم أذكارهم "دلائل الخيرات"، فتتبعت اثره في هذا القرن من خلال :

- الروايات والأسانيد والقراءات (فرق الدليل)
- شروحه والتعليقات عليه، وتلخيصاته وترجيزه

مؤلفات الأذكار التي سارت على نهجه مضمونا وأسلوبا ومنهجا، وقد وقفت في ذلك على نماذج كثيرة اكتفيت بالاشارة الى أهمها وأكثرها تأثرا بـ "الدلائل" مع مراعاة الجمع بين نماذج من المشرق والأندلس والمضارب وأوربا (شَرْحُه بالتركية). وأغلب هذه النماذج مخطوط يُعرّف به لأول مرة، وهو ما أعطى لهذا الفصل طابعا ببليوغرافيا مختلفا عن باقي الفصول.

الفصل الثالث : في مؤلفات التراجم والطبقات

تعكس هذه المؤلفات بعض سلبيات ظاهرة سبعة رجال :

- الابتعاد عن الزيارة/الرمز كما تصورها المنظمون، الى زيارة فعلية التزم بها الناس بتأثيراتها السلبية على عقليات الناس وتصرفاتهم.

- تحول في مستوى الكتابة الصوفية كما وجدناها عند سبعة رجال أنفسهم والتي تعتبر استمرارا للتآليف المشرفة التي أنتجها الغرب الاسلامي الى كتابة تهتم بالخرافات والكرامات، وتقدم الحديث عن آداب الزيارة وفوائدها وثمراته، والمجاذيب وأخبارهم. على الحديث عن النظرية الصوفية والمقامات وآداب التربية ودرجات الأولياء. وفي منهج يعتمد

الاستطراد المخل، والتكرار الممل، والتناقض الصارخ أحيانا.

هذه حال كثير من المؤلفات المتأثرة بالظاهرة : كدرر الحجال، والكواكب السيارة، والارتجال، والمجد الطارف والتالد، وبادرة الاستعجال، واظهار الكمال. يبقى ما يشفع لها هو ما تتضمنه من وثائق فريدة وشهادات شخصية متصلة بالفترات التي عاصرها مؤلفوها.

انها علامة أخيرة على التحول من التصرف السني الى التصوف الشعبي.

الخاتمـــة :

خصصتها لاستخلاص النتائج، وتسجيل الخلاصات التي انتهى إليها البحث.

وذيلته بقائمة للمصادر والمراجع المعتمدة، وفهرست مفصل للموضوعات.

أما عن المنهج المتبع فإن تنوع موضوعات الأطروحة، وامتدادها الزمني، واختلاف مباحثها يحتم استعمال أكثر من منهج، ذلك لأن لكل مستوى من مستويات البحث منهجاً مناسباً وضرورياً :

- فكان من اللازم الاستعانة بالمنهج التاريخي في الباب الأول عند الحديث عن مراكش، والطرق الصوفية، والزوايا التابعة لها.

وتحقيق مسألة الزيارة والأدوار المختلفة التي نهضت بها (مع الاستعانة بالخرائط والرسوم عند الاقتضاء).

- والمنهج الوصفي التحليلي، والنقدي أثناء تتبعي صدى سبعة رجال في الشعر، وفي أدب الأذكار، ومؤلفات التراجم والطبقات فهو الذي يساعد على التعرف الى مدى أهمية هذا التأثير وعمقه وامتداده، وحصر خصائص الشعر والكتابة الصوفية التي تفاعلت مع الآثار التي تهمنا.

- وحرصت على الاستفادة من الدراسات اللسانية الحديثة والتفتح عليها في حدود، وخاصة مسلمات النظرية الشعرية الأسلوبية والمنهج الاحصائي، وذلك عند دراستي لبعض الآثار الأدبية لسبعة رجال والتي عقدت لها الباب الثاني.

فالنظرية الشعرية أشد ارتباطا بالمناخ الحضاري والثقافي للأدب الذي أدرسه لأنها تلتقي في كثير من مقولاتها بالنقد والبلاغة العربية. وقد قامت أساسا على عدم الفصل بين لغة الاثر الأدبي.

ومضمونه، وانطلقت من كون النص بنية مشتملة على عناصر تؤلف بينها علاقات، ولكل عنصر منها خصائصه وخصوصياته، يتم حصرها عن طريق تحليل كل عنصر، فبدراسة الجوانب الصوتية، المعجمية، التركيبية للاثر الأدبي -مع أخذ المقصدية بعين الاعتبار- يتم إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني.

وقد تمكنت بالفعل من ملاحظة الفروق بين شعر عياض والسهيلي مثلا، وتحديد طبيعة الصياغة التعبيرية عند كل منهما.

إلا انني تجنبت تطبيق المنهج على شعر الغزواني لخصوصيته، فهو شعر المعاني والرمز الصوفي، لا يهتم فيه قائله بالجوانب الأسلوبية الفنية من جهة، ولأنه طويل (ديوان كامل) سيخرج الأطروحة عن سياقها، لذلك فإنه في نظري يتطلب دراسة مستقلة.

وتتميما للنظرية الشعرية لجأت الى التحليل السيسيائي بالنسبة للنصوص التي يغلب عليها الطابع السردي، وكذا في دراسة نماذج من الكرامات.

ولهذه النظرية كذلك اتصال بالمنهج الاحصائي (خاصة عند تناول الجانب المعجمي) وقد استعنت به في دراسة المعجم الشعري، وفي حصر الألفاظ والمصطلحات الأكثر ترددا في الأذكار والأحزاب والتصليات : فكل نص عبارة عن كلمات تتردد بنسب مختلفة، وكلما ترددت اما بصيغها أو بترادفها أو تركيب يفيد معناها، الا وكونت حقلا دلاليا يُحدد المحاور التي يدور حولها النص. وقد ساعد هذا المنهج ليس فقط على تحديد هذه المحاور، وإنما على تتبع تطور التجربة الصوفية عند المؤلف، بالنظر الى معجمه المستعمل : من ذكر الاستغفار مثلا، الى ذكر التصلية، فالتهليل. وبالتالي تدرج المريد من مقام الى مقام، وعلى تحديد نسبة تردد الكلمات والصيغ في الأحزاب لأن التكرار غاية في حد ذاته عند الذاكرين، فهو وسيلة للعلاج والتطهير وبالتالي التحول من مقام الى آخر، ولهذا فإن كُتّاب التصليات يركزون على كلمات وصيغ معينة يعتبرونها مفاتيح وطرقا لحدوث هذا التحول. وتطبيق المنهج الاحصائي يساعد على ضبطها وترتيبها واستخلاص النتائج من قوائمها وجداولها.

ولا أريد الاطناب في الحديث عن الصعوبات التي واجهتني في تهيىء هذه الأطروحة : فقد سبقت الاشارة الى تشعب الموضوع وامتداده الزمني، وما يتطلبه من توسيع للقراءات وتنويع لمجالاتها كما أشرت الى انعدام دراسات أستنير بها، وعسى أن يكون هذا كله شفيعا لي فيما وقعت فيه من مزالق وعثرات، وارتكبته من أخطاء.

ولا يفوتني ان أتوجه بالشكر الجزيل لكل الذين فتحوا لي أبواب مكتباتهم من علماء

مدن : مراكش، والرباط، وفاس، وتطوان. وحسبي أن يكون شكرا جماعيا حتى لا تطول قائمة الأسماء، أو أغفل بعضها. كما أتوجه بالشكر الى السادة محافظي : الخزانة العامة، والخزانة الحسنية، وخزانة كلية الآداب بالرباط، وخزانة القرويين بفاس، والخزانة العامة بتطوان، وخزانة ابن يوسف بمراكش.

وفي الختام، أوجه كلمة شكر صادقة الى أستاذي الجليل الدكتور عباس الجراري، فقد أفادني بعلمه الغزير، وتوجيهه السديد وأحاطني برعايته الفائقة، وكان -بما يعرفه عنه الباحثون والطلبة من نبل وتواضع ومكارم أخلاق- خير مشجع لي على مواصلة البحث، وتجاوز صعوباته وعقباته. أعانه الله على مواصلة رسالته العلمية الخالدة.

والله أسأل التوفيق والسداد

مراكش في15 أكتوبر 1986

المـــدخـــل

الحركة الصوفية بالمغرب

قبل تأسيس مراكش